الرجعية العربية المتخاذلة المتعاونة مع الاستعمار قد أخذت تنضج في الوقت نفسه ، وتتطور فتتراجع الاحكام الاخلاقية في النظرة الى الرجعية ويحل محلها التحليل الذي يشدد على الصراع الطبقي ، ويربطه ربطا جدليا بالصراع القومي . فبعد ان كانت ادبيات البعث المبكرة تصف الصراع بين الرجعية والقوى الثورية الجديدة بأنه صراع بين عقلية شائخة عاجزة ، وبين النشء الجديد الذي يتصف « بالبراءة » و « صدق الاطفال » ، يمسي الصراع عبر النضال اليومي للحزب صراعا بين طبقة رجعية تستغل الشعب ، وترتبط بالعدو القومي الاستعماري ، وبين جماهير الشعب الكادحة ذات المصلحة الحقيقية في الوحدة والاشتراكية من جهة اخرى .

ويتضح ذلك مثلا في المقارنة بين الرؤية الخلقية التي ينظر من خلالها الاستاذ ميشيل عفلق ، مؤسس الحزب وامينه العام لعدة سنوات لاحقة ، الى النشء الجديد عام ١٩٣٥ ، في حديثه عن « عهد البطولة » وبين الرؤية السياسية الاجتماعية في حديثه عن « العمال والاشتراكية » عام ١٩٥٠ ، او حديثه عن النظرة للرأسمالية وللصراع الطبقي عام ١٩٥٦ . ففي حديث « عهد البطولة » يبشر عفلق بعهد بطولة جديد ، يفتتحه النشء الجديد الذي يتميز بصفات اخلاقية نبيلة ، بصدق الاطفال وصراحتهم ، وهم قساة على انفسهم ، قساة على غيرهم ، كما انهم يرجعون عن اخطائهم غير هيابين ولا خجلين . وهو في هذا الحديث يرى ان التقليديين والشيوخ سوف يقابلون هذا النشء الجديد ذا الصفات الخلقية النبيلة بابتسامة ساخرة ، ليردوا فيها على حماسة هذا النشء وندائه . « انهم سيقولون دعوا هؤلاء الاطفال يلعبون برهة من الزمان ، ويحاولون تناول القمر بأيديهم القصيرة ، ان الواقع كفيل بأرجاعهم الى العقل ... ولكن واجب النشء ان تزيده برودة مواطنيه غيرة وايمانا ، وان يذكر ان بقاء بلاده حتى الان في تأخرها المعيب هو من جراء هذه الابتسامة الساخرة »[٦] .

فاذا قارن المتتبع هذا الحديث ولغته واسلوبه بحديث ميشيل عفلق عن العمال والاشتراكية ، بعد ١٥ سنة ، فسيلحظ نقلة نوعية تتلخص في تراجع الاحكام الخلقية من مكان الصدارة في نظرة البعث الى الساسة التقليديين الرجعيين ، والشباب الذي يناضل ضد عقليتهم . ليتقدم التحليل السياسي والاجتماعي فيحل محله ويطغى عليه . ففي حديث عفلق عن العمال والاشتراكية تشديد واضح على الصراع الطبقي المرتبط جدليا بالصراع القومي . فالصراع هنا ليس بين الشيوخ والشباب ، بل بين أقلية تملك معظم الثروات ، وتسيطر على السلطة ، وبين اكثرية مسحوقة « ان هذا الوضع الشاذ ، اي سيطرة اقلية من ابناء البلاد على ثروتها وحرمان اكثرية الشعب من الحقوق الطبيعية المشروعة ، يحول دون تقدم الوطن »[٧] . ويرتبط انجاز الاشتراكية بالتحرر القومي . وهو شرط لبقاء الامة وتقدمها ، فاذا لم تتحقق الاشتراكية كما يرى عفلق فسوف « يكون كل كلام عن حرية العرب واستقلالهم ضربا من اللغو ، ونوعا من التضليل »[٨] .

وفي هذا المجال يمكن ان نلمس الاثر الكبير الذي لعبته القضية الفلسطينية في تطور هذه النظرة وتجذيرها . ولعل موقف البعث من اميركا وبريطانيا قبل النكبة ، ثم بعدها ، يمثل خير دليل على ذلك . فبعد انتصار الحلفاء على المانيا ، اعلن الرئيس الاميركي روزفلت عن عزم اميركا على فتح ابواب الهجرة اليهودية الى فلسطين . وكشفت الدول الغربية عن مخططها الاستعماري الاستيطاني في فلسطين . وهنا يرى المتتبع لتطور نظرة البعث الى الاستعمار ، من